تجليات الفكر الشيعي في شعر دعبل الخزاعي

الأستاذة : صبرينة رقاد
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

ملخـــص:

يسعى هذا المقال إلى دراسة سمة بارزة سيطرت على جّل النتاج الشعري لـ :" **دعبل بن عليّ الخزاعي** "، وهي النزعة المذهبية الشيعية، محاولا الكشف عن تجليات وانعكاسات هذه النزعة في المتون الشعرية للخزاعي من خلال التفصيل في الموضوعات التي برزفيها أثر التشيع واضحا، والنظر في مرجعياتها الفكرية.

Abstract:

This article tends to study an important characteristic which controls all the poetry works of "DABEL ELKOUZAI" which is the Shiite doctrinal tendency trying to reveal the effects and the appearances of this tendency on the poetry of DABEL through detailing the subjects where the effect of Shiitism is the clearest.

تمهيد:

كان للشعر العربي في العصر العباسي حضور متميز، إذ صور الحياة العباسية بجميع جوانبها على نحو أصبح فيه الشعراء الصوت الإعلامي لقضايا العصر وأحزابه السياسية وفرقه الدينية، لاسيما فرقة "الشيعة" التي سجلت حضورا أدبيا نشطا" اشتركت فيه عوامل ممتزجة من الدين والسياسة "(1). مشكلة منبعا ثريا لإيديولوجيا مذهبية خاصة تغلغلت إلى العديد من المتون الشعرية التي اصطبغت بروح المذهب الشيعي، وحاول أصحابها الدفاع عن الحياض المذهبية بكل ما أوتوا من ملكة اللسان جاعلين من التشيع مبدأً راسخا، ومن الدفاع عن مظلومية أهل البيت هدفا ساميا، فجاءت أشعارهم محملة بالعديد من مرجعيات الفكر الشيعي.

ومن الشعراء العباسيين الذين رفعوا لواء التشيع عاليا"دعبل بن على الخزاعي"(2) الذي قدم فهما خاصا لظاهرة الالتزام المذهبي في الشعر العربي في القرن الثالث هجري.

أولا: دعبل الخزاعي بين التشيع والزندقة:

قبل محاولة استجلاء مرجعيات ومظاهر الفكر الشيعي في شعر دعبل، لابد من الوقوف على مسألة صدق تشيع الشاعر من عدمه، فقد قيل عن تشيعه الشيء الكثير بين من أكد تشيع دعبل وخرج به إلى نطاق الغلو والتعصب، كما فعل "الحصري" في زهر الآداب وثمر الألباب(3)،وبين من اتهمه بالزندقة والتظاهر بالتشيع رغبة في كسب المالك ما فعل أبو العلاء المعري(4)في رسالة الغفران، وتبعه في رأيه هذا بعض المحدثين، كالدكتور شوقي ضيف، الذي استند في تشكيكه على حجتين أساسيتين: الأولى هي أن دعبلا الذي كان يكره الناس لا يمكن أن يخلص في حبه لأهل البيت إلا أن يكون وراء ذلك منفعة شخصية، ويرى أن أموال "قم"(5) هي التي دفعته إلى ما كان ينظم من أشعار شيعية .

أما الثانية: فهي أنه لو كان مخلصا في تشيعه حقا لأعلى صلة التشيع بينه وبين الكميت على العصبية القبلية،مشيرا إلى نونية دعبل في مناقضة للكميت وهجاء القبائل العدنانية .(6)

أما عن اتهام دعبل بالتكسب، فإن الشاعر إن كانت له مكاسب يسعى إلى تحقيقها فعلا،فالأولى أن تكون مع العباسيين الذين بيدهم مقاليد الأمور كلها لا مع العلويين

المغلوبين على أمرهم. ثم إن دعبلا لو أراد حقا التكسب بشعره لوضع لسانه في سوق الارتزاق كما فعل غيره من الشعراء الذين تكسبوا بأشعارهم .

أضف إلى ذلك أن أهل "قم"قد دفعوا لدعبل ثلاثين ألف درهم ثمن خلعة من الثياب كان قد خلعها عليه الإمام الثامن عليّ بموسى الرضا، لما سمع تائيته الشهيرة،غير أنه رفض أن يبيعها، وأيّ دليل على صدق تشيعه أكثر من رفضه للمال في سبيل خرقه من الثياب .

السبب الثاني من أسباب التشكيك بصدق تشيع دعبلـــ حسب رأي الدكتور شوقي ضيف-هو تعصبه على المضّرية وهجاؤه في مناقضاته للكميت. غير أن قصيدته تلك لم تكن موجهة إلى الكميت من حيث هو فرد، إذ ليس فيها ما ينّم عن عداء شخصي اتجاه الكميت أو طعن في عقيدته الشيعية وإنما هي دفاع عن قومه وتعصب لهم ليس إلا.

أما فيما يتعلق بالصفة الثانية التي وصف بها أبو العلاء المعري دعبلا وهي الزندقة، فلعل ذلك يرجع إلى سلوكه الشخصي ومصاحبته للشطار والصعاليك، وعدم تورعه عن التلفظ بالألفاظ النابية، التي لا تليق لا بأهل البيت ولا بالإسلام الذي ينسب دعبل نفسه إليه، وليس غريبا أن يكون ذلك جزء من تيار اللهو والمجون الذي انتشر في الكوفة وقت ذاك .

وما يمكن أن يقال عن انتماء دعبل الخزاعي للمذهب الشيعي أنه انتماء خالص بعيد عن أي دوافع مادية.

ولعل ما يدعم رأينا هذا هو أن دعبلا وقف موقف المعارضة الصريحة للعباسيين، فكان الالتزام في شعره باطنا ظاهرا في ذات الوقت، يجمع بين ظاهر القول وحقيقة الإيمان دون اللجوء إلى التّستر بمبدأ "التقيّة"(7) كما فعل غيره من شعراء الشيعة. وكل ذلك كان بدافع حبه لأهل البيت، ذلك الحب الذي نشأ عليه منذ صغره نظرا لكونه خزاعي النسب، ويكفي لمعرفة موقف خزاعة من أهل البيت، قول معاوية بنأبي سفيان:" إن نساء خزاعة لو قدرت أن تقاتلني فضلا عن رجالها لفعلت".(8) فجاءت أشعاره ترجمانا لذاك الحب وصوتا يصدح بالعديد من مرجعيات الفكر الشيعي.

ثانيا: مظاهر ومرجعيات التشيع في شعر دعبل الخزاعي .

اتخذ التشيع في شعر دعبل تجليات ودلالات مختلفة تصب جميعا في دائرة الإيمان بالمبادئ الشيعية، وتتصل مباشرة ببعض الآيات والأحاديث النبوية الشريفة التي يسوقها الشيعة كأدلة لإثبات مزاعمهم حول أحقيتهم في الخلافة تأويلا من أنفسهم، فضلا عن بعض المعتقدات التي ينبني عليها مذهبهم .

وسوف نحاول فيما يأتي الوقوف عند مظاهر التشيع في النصوص الشعرية لدعبل،والنظر في مرجعياتها العقدية من خلال التفصيل في الموضوعات التي برز فيها أثر التشيع واضحا، والتي توزعت وفق المحاور الآتية :

1- مديح أهل البيت وإظهار محبتهم :

اتخذ المديح عند دعبل منحىً مغايرا لما كان سائدا في عصره، فلم يكن بدافع التكسب كما اتهمه البعض، وإنما كان بدافع الوازع العقدي.وقد اختصت مدائح دعبل لآل البيت غالبا، بالإشادة بالنبي ﷺ وأهل بيته، وكان لعليّ بن أبي طالب النصيب الأكبر، إذ اجتهد الشاعر في ذكر شمائله، وتغنى بقرابته للنبيّ ﷺ ونصرته له، مستندا إلى بعض الخلفيات الفكرية الشيعية، ومنها حادثة تصدّق عليّ بخاتمه على مسكين وهو راكع في صلاته، والتي يربطونها بالآية الكريمة:" **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**".[المائدة :الآية55]

وفي هذا المعنى قال الخزاعي:(9)

نَطَقَ القُرآنُ بِفَضْلِ آلِ مُحَمّدِ وَولَايَةٍ لِعَلِيّهِمْ لم تُجْحَدِ

إذ جاءَهُ المِسْكينُ حالَ صَلاتِهِ فامْتَدَّ طَوعًا بالذِّراعِ وباليَدِ

فتَنَاولَ المِسْكِينُ مِنْهُ خَاتَمًا هِبَةَ الكَرِيمِ الأجْوَدِ ابنِ

وقد ربط الشيعة في أثارهم بين نزول الآية الكريمة وحادثة تصدق عليّ بخاتمه على مسكين وهو راكع، وذهب ابن كثير إلى أنه لا يصح فيها شيء بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها"(10)، إضافة إلى أن فهم الشيعة للآية الكريمة لا يستقيم ومقررات الشرع، وقد بيّن ابن كثير ذلك بقوله:" وقد توهّم بعض الناس أن هذه الجملة(وهم راكعون)، في موضع

الحال من قوله: ويؤتون الزكاة(أي حال ركوعهم)، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى).(11)

أيضا من الآيات التي ساقها الشيعة كأدلّة لإثبات الإمامة لعلي بن أبي طالب وأشار إليها دعبل في مديحه، آية المباهلة في قوله تعالى:" **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**". [آل عمران : الآية 61] .

وفي ذلك قال:(12)

أَهْلُ المُباهَلَةِ الكَريمةِ والكِسا والبَيْتِ والأسْتارِ والحُرُماتِ

والحَافِظُوا حِكَمَ الزَّبُورِ وما في الصُّحفِ والإنْجيلِ

يشير الخزاعي في أبياته إلى الآية الكريمة، والتي يزعم الشيعة أن المراد بأنفسنا فيها، عليّ بن أبي طالب لأن الشخص لا يدعو نفسه،ويجعلون عليّا بن أبي طالب مساويا للنبيّ ﷺ، وهكذا تجب ولايته على حد زعمهم، وهو مالا يقبل فالرسول الكريم لا يساويه أحد والمسألة كلها لا علاقة لها بالإمامة .

وآية المباهلة جاءت في مقام التخصيص لآل البيت، فعرّفت بمقامهم وفضلهم على غيرهم، يقول الزمخشري:"خصت الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل وألصقهم بالقلوب، وقدّمهم في الذكر على النفس لينبّه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم."(13)

كذلك في الأبيات إشارة إلى الآية الكريمة:" **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.**" [سورة الأحزاب :الآية33].وهي ما عرفت عند الشيعة، بآية التطهير، فيوم الكساء هو اليوم الذي طهر فيه أهل الكساء واختصوا بتلك العصمة التي يزعمونها، وفي الآية تسمية آل البيت باسمهم الصريح المصطلح عليه – أهل البيت- ويقول أبو سعد الخدري:" نزلت هذه الآية في علي والحسن والحسين وفاطمة"(14).

يصور دعبل في موضع آخر صدق عليّ بن أبي طالب وشجاعته مشبها إياه بالضيغم مشيدا بإقدامه، قائلا:(15)

أبو تُرابٍ حَيْدَرَهْ ذَاكَ الإمَامُ القَسْوَرَهْ
مُبَارِزٌ مَا يَرْهَبُ وضَيْغَمٌ مَا يُغْلَبُ
صَيَّرَهُ هَارُونَهُ فِي قَوْمِهِ أَمِينُهُ

وفي تسمية أبي تراب إشارة إلى حديث(جاء رسول الله فاطمة فلم يجد عليا في البيت فقال: أين ابن عمك؟... قد سقط رداؤه عن شقه، فأصابه تراب فجعل رسول الله يمسحه عنه ويقول: " قم أبا التراب، قم أبا التراب".)(16)

ويشير الشاعر في قوله:(صيره هارونة ** في قومه أمينه) إلى حديث المنزلة، وما قاله النبيّ لعليّبن أبي طالب لما استخلفه على المدينة المنورة في غزوة تبوك، حين قال عليّ لرسول الله ﷺ: يارسول الله تخلفني على النساء والصبيان؟. فقال:أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبيّ بعدي"(17)

إلى جانب مديح الطالبيين، صرح دعبل في العديد من قصائده عن حبه لهم، ولم يكن حبا عاديا بل كان تصوفا حقيقيا"(18)فكما يتوق الصوفي إلى التغني بالذات الإلاهية العليا، يتوسل دعبل في تائيته إلى الله عزّ وجل أن يمنحه المزيد من حب أهل البيت، أملا في أن يكون حبه لهم زيادة في حسناته، فهو في نظره المخلص والمنقذ له من الظلمات إلى النور، فنجده يقول:(19)

مَلَامَكَ في أهْلِ النَبِيّ فَإنَهُمْ أحبّايَ ما عَاشُوا وأَهْلُ ثِقَاتِي
فيا ربِّ زِدْنِي مِنْ يَقِينِي بَصِيرَةً وَزِدْ حُبَّهُمْ ياربِّ في حَسَنَاتِي

كما أظهر دعبل من خلال إعلان محبته لأهل البيت مبدأً من مبادئ الشيعة وهو مبدأ الشفاعة، أي شفاعة الرسول ﷺ وآل بيته، معتبرا إياهم المخلصين له يوم القيامة، بقوله:(20)

شَفِيعِي فِي القِيامَةِ عِنْدَ مُحَمَّدُ والوَصِيُّ مَعَ البَتُولِ
وَسِبْطاَ أحْمَدَ وبَنُو بَنِيهِ؛ أُولَئِكَ سَادَتِي آلُ الرَسُولِ

وعكس هذا اللون من أشعار دعبل مشاعر الإجلال والإكبار التي حملها الشاعر في قلبه لأهل البيت وترجمها بقصائد خالدة في الإشادة بالطالبيين.

2- الدفاع عن أحقية العلويين في الخلافة :

آمن دعبل بأحقية أهل البيت في الخلافة، وسار على نهج غيره من شعراء الشيعة متخذا من أشعاره مساحة لمحاولة إثبات أحقية عليّ بن أبي طالب في الخلافة مازجا بين الاستمالة العاطفية، والإقناع العقلي المستند إلى بعض الأدلة المزعومة وفي مقدمتها حديث يوم الغدير.وذلك مانلمسه في قوله : (21)

أخُو المُصْطَفَي بَلْ صِهْرُهُ وَوَصِيُهُ مِنَ القَومِ والسَتَارُ للعَوَراتِ

كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى على رَغْمِ مَعْشَرٍ سِفَالٍ لِئَامٍ شُقَقِ البَشَراتِ

فَقَالَ أَلَا مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ مِنْكُمْ فَهِذَا لَهُ مَولَى بَعِيدٍ وَفَاتِي

يفتتح دعبل أبياته بالإشارة إلى مؤاخاة النبي ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:"أنت أخي في الدنيا والآخرة"(22) ويشير في البيت الثاني إلى حديث المنزلة، وما قاله النبيّ لعلي بن أبي طالب لما استخلفه على المدينة المنورة في غزوة تبوك، حين قال عليّ لرسول الله(ص): يا رسول الله تخلفني على النساء والصبيان؟. فقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبيّ بعدي"(23) وتروي الشيعة الحديث على أنه تعيين لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وتخصيص له بالإمامة بعد الرسول ﷺ ، ويفهمون من سياقه أن النبيّ ﷺ استخلف عليا على أهله في المدينة.ويذهب ابن حزم إلى أن هذا الحديث لا يوجِدُ لعليّ فضلا على سواه ولا استحقاق فيه لإمامته من بعده عليه الصلاة والسلام، لأن هارون لم يلِ أمر بني إسرائيل بعد موسى عليهما السلام، وإنما وليّ الأمر بعد موسى ،يوشع بن بون، كما وليّ الأمر بعد الرسول ﷺ صاحبه في الغار".(24)

وقد أكثر الشيعة من القول بحديث المنزلة في إثبات ولاية عليّ،وردّ أهل السنة على ذلك

أن النبيّ استخلف عليا في حياته، وأن الاستخلاف في حياته ﷺ كان واجبا يمارسه في الغزوات وفي الحج والعمرة وفي غير ذلك،أما بعد وفاته فأمرهم شورى بينهم، فاستخلاف هارون كان مقيدا بغيبة موسى، فلما انقضت الغيبة انتهت، وفي عليّ أيضا كانت خلافته حال غيبة النبي ﷺ ، لا بعد وفاته"(25)

وفي البيت الأخير يشير دعبل إلى مسألة الوصاية، وحديث يوم غدير خم(26)، والذي تروي الشيعة أن النبيّ ﷺ أوصى بخلافة عليّ حين خطب وقال:"أو لستم تعلمون أو تشهدون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟، قالوا بلى، قال :" من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم وال من ولاه" (27).

وقد سجلت الوصاية حضورا واسع المدى في أشعار دعبل، إذ جاهر الخزاعي بعقيدته وظهرت معتقداته واضحة جليّة في أشعاره، ومن ذلك قوله : (28)

هُمُ مَنَعُوا الآباءَ عَنْ أخْذِ وهُمْ تَرَكُوا الأبْنَاءَ رَهْنَ

وهُمْ عَدَلُوها عَنْ وَصِيّ مُحَمَّدٍ فَبَيْعَتُهُمْ جاءَتْ على الغَدَراتِ

كذلك يقول دعبل مناقشا لمسألة الإرث، مشيرا إلى أن البت في مسألة الإمامة لو كان يستند فقط إلى القرابة للنبيّ ﷺ فإن بني هاشم أولى بها : (29)

هُمُ أهْلُ مِيراثِ النَّبِيِّ إذا اعْتَزُوا وهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ وخَيْرُ حُمَاةِ

فانْ لم تَكُنْ إلا بقُربَى مُحَمَّدٍ فَهَاشِمُ أولى مِنْ هَنٍ وهَنَاتِ

ولم تكن مسألة الاحتجاج للعلويين ومظلوم يتهم قصرا على غرض معين في شعر دعبل، وإنما سجلت حضورها في أغراضه المختلفة، والتي لا تلبث أن تتحول إلى مساحة للاحتجاج والجدل. من خلال تمرير بعض الأدلة، المستمدة من الفكر الشيعي، على نحو ما رأيناه في المديح.

3- الرثاء المذهبي :

شغل الرثاء مساحة شاسعة في شعر الخزاعي، وقد سار فيه الشاعر على نهج غيره من شعراء الشيعة، فجاءت مرثياته مخلدة للعديد من الأحداث والشخصيات التاريخية المرتبطة

بالمعتقد الشيعي. تموج فيها عواطف متداخلة ترسم صورة وجدانية مؤثرة تتميز بالبكائية والتصويرية، لاسيما عندما يتعلق الأمر برثاء الحسين وتخليد حادثة مقتله في كربلاء. (30)ومن ذلك قوله : (31)

أَأَسْبَلْتَ دَمْعَ العَيْنِ بالعَبَرَاتِ، وبِتَّ تُقَاسِي شِدَّةَ الزَّفَرَاتِ

ألا فأبكهم حَقًّا وأَجْرِ عَلَيْهِمُ عُيونًا لِرَيْبِ الدَّهْرِ مُنْسَكِبَاتِ

ولا تَنْسَ في يَوْمَ الطُّفُوفِ مُصَابَهُمْ وداهِيَةٍ مِنْ أَعْظَمِ النَّكَبَاتِ

وصَلِّي على رُوحِ الحُسَينِ وجِسْمِهِ طَرِيحًا لَدى النَّهْرَيْنِبالفَلَوَاتِ

قَتِيلًا بِلاَ جُرْمٍ، يُنَادِي لِنُصْرَةٍ فَرِيدًا وَحِيدًا:أَيْنَ أَيْنَ حُمَاتِي؟

أَأَنْسَى- وهذا النَّهْرُ يَطْفَحُ-ضامِئًا قَتِيلاً ومَظْلُومًا بِغَيْرِتِرَاتِ

يصور الشاعر حالته النفسية المتردية لما أصاب أهل البيت، داعيا العين إلى بكائهم طول الدهر. ويذكر حيث يتمقتل الحسين في كربلاء ويبكيه من خلال الزمان والمكان، فالميت في نظره ليس الحسين فحسب بل كل ما كان شاهدا على مقتله.

في قصيدة أخرى يصور دعبل حادثة مقتل الحسين في الطف(32)بشكل أقرب ما يكون تأريخا للواقعة، بقوله:(33)

يا أُمَّةً قَتَلَتْ حُسْنًا عَنْوَةً لم تَرْعَ حَقَّ اللهِ فِيهِ فَتَهْتَدي

قَتَلُوهُ يَومَ الطَّفِّ طَعْنًا بالقَنَا سَلْبًا وهَبْرًا بالحُسامِ المُقْصِدِ

ولَطَالَمَا نادهُمُ بِكَلَامِهِ : جَدِّي النَّبِيُّ خَصِيمُكُمْ في المَوْعِدِ

يا قَوْمُ إنَّ الماءَ يَلْمَعُ بَيْنَكُمْ وأُمُوتُ ظَمْآنَ الحَشا بِتَوَقُّدِ

قالُوا له: هذا عَلَيْكَ مُحَرَّمٌ حتى تُبايِعَ للغَبِيِّ الأَسْوَدِ

افتتح الشاعر أبياته بوصف دقيق لحادثة مقتل الحسين في الطّف ومحاولاته الفاشلة

للتفاوض مع قاتليه، ثم تنحى جانبا ليفسح المجال للحسين ليصور الطريقة الوحشية التي قتل بها، ومنعه من إتيان ماء الفرات والشرب منه حتى يبايع معاوية بن أبي سفيان على الرغم من إلحاحه وأهل بيته على طلب السقيا.ولا ريب في أن الشاعر قد امتلك من الذكاء ما جعله يحسن اختيار المؤثرات الوجدانية الهادفة إلى الاستمالة العاطفية، فإفساحه المجال للحسين ليرويّ ما حلّ به لم يكن جزافا وإنما كان من شأنه تأجيج مشاعر التعاطف والحزن.

الشيء ذاته نلمسه أيضا، في قوله : (34)

يا جَدُّ! قَدْ مُنِعُوا الفُراتَ وقُتِلُوا عَطَشًا، فَلَيسَ هُنالِكَ مَوْرِدُ

ياجَدُّ! ذا نَحْرُ الحُسَينِ مُضَرجٌ بالدَّمِ والجِسْم الشَرِيفُ مُجَردُ

يا جدُّ! ذَا صَدْرُ الحُسيْنِ والخَيْلُ تَنْزِلُ مِنْ عَلَيْهِ وتَصْعَدُ

يُرنُوَا ٌ لِوالِدِهِ ويَرنُوا لِحَالِهِ وبَنُو أُمَيَةَ في العَمَى لَمْ يَهْتَدُوا

أجرى دعبل الخطاب على لسان شخصية نسائية هي إحدى بنات فاطمة الزهراء بهدف تأجيج المشاعر بمناداتها للرسول ﷺ ، إلى جانب اعتماده على الجانب التصويري وحسن اختيار اللقطات المثيرة للشفقة.

وهذا النهج التصويري للمشاهد الدامية يتجلى بشكل أكبر في تائية دعبل الشهيرة في مديح آل البيت وبكاء مصابهم، والتي قال عنها ابن المعتز:" أنها أشهر من الشمس"(35)، ولعل شهرتها تلك ترجع إلى وجود سمات خاصة منحتها التميز والخلود، في مقدمتها اعتمادها على نهج تصويري شمولي يجمع بين الماضي والحاضر ويحمل تطلعا للمستقبل، محاولة الاحتفاظ بحس الفاجعة عن طريق الإطالة في تصوير المشاهد الدامية والحزينة. وتصبير النفس بعودة الحقوق إلى أصحابها. إذ استهلها الشاعر بمطلع بكائي يفيض بالحزن والأسى لما أصاب ديار آل البيت، بعدما كانت منازل للتقى والطهارة وذكر الله، جاء فيه : (36)

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ ومَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

ديارٌ عفاهَا جُور كُلِّ منابذٍ ولم تَعْفُ للأيامِ والسَّنَواتِ
قِفَا نَسْألُ الدارَ التي خَفَّأهْلهَا متى عهدُها بالصَّومِ الصِلَواتِ

ومن ثمة يدعو فاطمة إلى بكاء الحسين الذي مات مجدلا بشط الفرات ويعدد الأمكنة التي امتلأت بقبور أهل البيت معبرا عن حزنه لعدم مقدرته على زيارة تلك القبور خوفا من جلاد السلطان، فيقول : (37)

أفَاطِمُ قُومي يا ابنَةَ الخَيْرِو أندُبِي نُجُومَ سَمواتٍ بِأرْضِ فَلاةِ
قُبُورٌ بِكوفانٍ وأخْرى بِطَيْبَة وأخْرى بِفَجٍ نالَها صَلَواتي
أخافُ بِأنْ أزرْ دارَهُمْ فَتَشُوقَنِي مَصَارِعُهُمْ بالجِزْعِ فالنَخَلاتِ

وبعد ذلك يعود ليشير إلى الشتات الذي أصاب أهل البيت في حياتهم ولاحقهم حتى بعد مماتهم، فكانت قبورهم في بقاع مختلفة من الأرض لا تزورهم فيها سوى الضباع والجوارح:(38)

تَقَسَّمَهُمْ رَيْبُ الزَّمَانِ، فما تَرى لَهُمْ عَقْوَةً مَغْشِيَّةَ الحُجُراتِ
خَلا أنَّ مِنْهُمْ بالمَدِينَةِ عُصْبَةً مدى الدَّهْرِ أنْضَاءً مِن الأزَماتِ
قَلِيلَةَ زُوَارٍ سِوى بَعْضِ زُوَرٍ مِنَ الضَّبْعِ والعِقْبَانِ ذو الرَّخَماتِ
لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ نَومَةٌ بِمَضَاجِعٍ لَهُمْ فِي نَواحِي الأرضَ مُخْتَلَفَاتِ

ويعقد الشاعر مقارنة بين حال آل البيت الذين قتلوا وشردوا وبين آل زياد الذين يسكنون القصور، والحال الذي آلت إليه بنات الوحي وسبيهن في الفرات وبين بنات الدعيّ وهن مصونات في القصور، فيقول:(39)

فكَيْفَ أُدَاوِي مِنْ جَوىً لِيَ، أمَيَّةُ أهلُ الفِسْقِ والتَّبِعَاتِ
بَنَاتُ زِيَادٍ في القُصُورِ مَصُونَةٌ وآلُ رَسُولِ اللهِ فِي الفَلَواتِ

وآلُ رَسُولِ اللهِ تُدْمَى نُحُورُهُمْ وآلُ زِيادٍ رَبَّةُ الحَجَلاتِ
وآلُ رَسُولِ اللهِ تُسْبَى حَرِيمُهُمْ وآلُ زِيَادٍ آمِنُو السَّرَباتِ

ثم يعود ليصبّر نفسه بيقينه بقرب خروج المهدي المنتظر ويعبر عن شوقه ليراه، آملا في أن يكون ما هو أت خير لآل محمد راجيا بأن يمتد به العمر لذلك اليوم الذي يردّ فيه الاعتبار لأهل البيت : (40)

فَلَولَا الذِّي أرْجُوهُ من اليَومِ أو غَدٍ تَقَطَعَ قَلْبِي إثْرَهُمْ حَسَرَاتِ
خُرُوجُ إمَامٍ لاَ مَحالَةَ خَارِجٌ يَقُومٌ على اسمِ اللهِ بالبَرَكاتِ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وبَاطِلٍ ويَجْزِي على النَّعْمَاءِ والنَّقَمَاتِ
فَيَا نَفْسُ طِيبِي، ثم يا نَفْسُ أبْشِرِي فَغَيْرُ بَعِيدٍ كُلُّ مَا هُو آتِ
فَإنْ قَربَ الرَحمنُ مِنْ تِلْكَ مُدَتِي وأخَّرَ مِنْ عُمْرِي لِيَومِ وفَاتِي

ويظهر من خلال الأبيات إيمان الخزاعي بالرجعة التي تعد ركنا أساسيا من أركان التشيع(41)، والإيمان بالرجعة أو قيام المهدي المنتظر، ظاهرة كثر القول فيها، ويرى خصوم الشيعة أنها نوع من الأمل المزعوم دفع إليه الخوف من يأس أتباعهم وذوبان حزبهم"(42)ويصّر الشيعة على أنهم تلقوا ذلك من أهل البيت أنفسهم، ويسوقون بعض الآيات والأحاديث النبوية كأدلة لمزاعمهم.

أما بعض المستشرقين فيرون أنها دليل على تسرب الأفكار اليهودية والمسيحية، إلى الفكر الشيعي، ويرون أن رجعة ابن الحنفية هي صورة عن رجعة المسيح إلى الأرض في آخر الزمان، وصورة عن قصة النبيّ (إليا)،الذي رفع إلى السماء، وسيعود.(43)

وقد ظهرت فكرة الرجعة لدى شعراء الشيعة، لاسيما في الرثاء إذ منّوا أنفسهم بأن موت محمد بن الحنفية غيبة مؤقتة، ومضوا يعللون أنفسهم بالأمل المرتقب، واليوم الذي ينصف فيه آل البيت ويقتص لهم من ظالميهم، فلا نكاد نقرأ مرثية من المرثيات الشيعية إلا ويطالعنا هذا الأمل على شكل تهدئة للنفس وطمأنينة أو تهديد للقتلة.

4- الهجاء السياسي:

استقراءً لأشعار الخزاعي، التي تتصل بالهجاء السياسي ذي المكنونات المذهبية، يتضح لنا أن هذا النوع من الهجاء الذي تحركه العصبية المذهبية قد شكل أحد الموضوعات البارزة لدى الشاعر، الذي تناول بالنقد اللاذع الذي يصل إلى حد التجريح والاقذاع أحيانا، كل من لهم علاقة بالسلطة العباسية.وما زاد من بروز هذا التوجه في أشعار دعبل أنه لم يكن يتستر بالتقية، إذ امتلك من الجرأة ما جعله يعبر عن ضيقه منبني العباس ويقذع في هجائهم علنا ويتناولهم في كثير من الأحيان بما لا يليق . وتتلخص التهم التي وجهها لهم في الطعن في أخلاقهم ودينهم.

وقد كان دعبل يتصيد المناسبات ليصب أهاجيه على الخلفاء الأحياء منهم والأموات، فحين بلغه نبأ وفاة الإمام الرضا ودفنه بجوار قبر هارون الرشيد في مدينة طوس، إحدى مدن خرسان شق عليه اجتماع الطهر والرجس، فأنشد قوله : (44)

قَبْرانِ في طُوسِ: خَيْرُ الخَلْقِ كُلِّهُمُ وقَبْرُ شَرِّهِمُ، هذا مِنَ العِبَرِ

ما يَنفع الرِّجْسَ مِنْ قُرْبِ الزَّكِيِّ، وما عَلى الزَّكِيِّ بِقُربِ الرِّجْسِ مِنْضَرَرِ

هَيْهات كُلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ، فَخُذْ مَا شِئْتْ أوْ فَذَرِ

وجمع دعبل بين هجاء الميت والحي حين بلغه نبأ وفاة المعتصم وتولي الواثق، فقال:(45)

الحَمْدُ لِله لا صَبرٌ ولا جَلَدُ، ولا عَزَاءٌ إذا أهْلُ البَلَا رقَدُوا

خَلِيفَةٌ ماتَ لم يَحْزَنْ له أَحَدٌ، وآخَرٌ قامَ لم يَفْرحْ بهِ أَحَدُ

فَمَرَّ هذا ومَرَّ الشُؤْمُ يَتْبعُهُ وقَامَ هَذَا، فقامَ الشُؤْمُ والنَّكَدُ

يفتتح الشاعر أبياته بحمد الله الذي وافى المعتصم أجله، فلا صبر ولا جلد ولا عزاء لأن الذي مات من أهل البلاء، فلا حزن على خليفة مات، ولا فرح لخيفة قام فكلاهما شؤم وويل ونكد للمسلمين. وفي تنكير كلمة خليفة ما يدل على استهزاء بالغ بالمعتصم، وكذلك كلمة الآخر والمقصود بها الواثق.

كما يشير دعبل إلى ظاهرة الألقاب الدينية التي شاعت بين ملوك بني العباس، والتي تناقض حقيقة سلوكهم في قوله:(46)

وسَمَّوا رشيدًا لَيْسَ فِيهِمْ لِرُشْدِهَ وها ذاكَ مَأْمُونٌ وذاكَ أَمِينُ

فَما قُبِلَتْ بِالرُشْدِ مِنْهُمْ رِعايَةٌ ولا لِوَلِيٍّ بِالأَمانِةِ دِينُ

رَشيدُهُمْ غَاوٍ، وطِفْلَاهُ بَعْدَهُ، لِهذا رَزايا، دُونَ ذاكَ مُجونُ

وقد سار دعبل في هجائه على نهج غيره من شعراء الشيعة، متخذا من أهاجيه سلاحا للطعن في العباسيين كنوع من أنواع الممارسة السياسية الرافضة والنابعة أساسا من تعصب الشاعر للشيعة ونظرته لمسألة الخلافة.

غير أن الملاحظ على أهاجي الخزاعي أنها عفت عن توجيه السباب والشتائم للشيخين أبي بكر الصديق،وعمر بن الخطاب، وأيضا عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليهم، على عكس غيره من شعراء الشيعة من أمثال السيد الحميري.

وخلاصة القول:إن دعبلا بن عليّ الخزاعي شاعر شيعي، جاهر بمعتقده، وكانت أشعاره مساحة للاستمالة العاطفية والجدل والنقاش والدفاع عن مظلومية أهل البيت من خلال العديد من الأدلة والبراهين، العقلية والمنطقية ذات المرجعيات الفكرية المستمدة من معتقدات الشيعية وتأويلاتهم الذاتية لبعض الأحاديث النبوية الشريفة والآيات الكريمة كآية المباهلة، وآية التطهير، وحديث يوم الغدير....

الهوامش والمراجع:

(1)- محمد سليم هياجنة، الخطاب الديني في الشعر العباسي، ط1،عالم الكتب الحديث، إربد – العراق، 2009م، ص56.

(2) - دعبل بن عليّ الخزاعي(148هـ - 246هـ) شاعر عباسي متميز، اختلف المؤرخون في اسمه و نسبه ومكان ولادته، واتفقوا في لقب " دعبل"، نشأ في بيت اشتهر اكثر رجاله بقول الشعر، عاصر العديد من خلفاء بني العباس وأقذع في هجائهم، قتل بمنطقة السوس بعكاز مسمومة مات إثرها. أخباره مبثوثة في : الأغاني، معجم الأدباء... .

(3)- ينظر: أبو اسحاق ابراهيم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،ط1، دن، دب،1999م، ج1، ص186.

(4)- ينظر: أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ضبط وتصحيح: إبراهيم اليازجي،ط1،المطبعة الهندية أمين هندية، الأوزبكية-مصر، 1907م، ص134.

(5)- قم: مدينة فارسية، ، خصبة ذات أبار وبساتين وفواكه، كان الشيعة يكثرون فيها ينظر: عبد الكريم الأشتر، شعر دعبل الخزاعي،ص553.

(6)- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول،ط16، دار المعارف، القاهرة ــ مصر،2004م،ص321.(إشارة إلى قصيدة دعبل النونية التي مطلعها: أفيقي من ملامك يا ضغينا، في هجاء المضرية ومناقضته قصيدة الكميت في هجاء القحطانية ومطلعها: ألا حييت عنا يا مدينا).

(7)- التقيّة: أحد المبادئ الشيعية التي تبيح التعامل مع غير الشيعي على خلاف الباطن ينظر: الطباطبائي،الميزان في تفسير القرآن،ط3، الأعلمي للمطبوعات، بيروت ــ لبنان، ، 1972م، ص729.

(8)- عليّ بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق: نور الدين ومحمد خليل الزين، دط، دار الفكر، بيروت ــ لبنان، 1954م، ص5654.

(9)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل الخزاعي، صنعة: عبد الكريم الأشتر، ط2، مجمع اللغة العربية، دمشق- سوريا، 1983م، ص335.

(10)- أبو الفداء اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط3، مؤسسة المختار، القاهرة – مصر، دت ، ج2، ص71.
(11)- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
(12)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي،ص321 ،322.
(13)- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دط، دار الفكر، دب، 1993م، ج3، ص426.
(14)- القرطبي أبو محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن الكريم،ط1، دار الكتب، القاهرة- مصر، 1946م، ج15، ص183.
(15)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص351،352.
(16)-أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، شرح صحيح مسلم، تحقيق: يحي اسماعيل،ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، دب، 1998م، ج4، ص419.
(17)- المرجع نفسه، ص412،411.
(18)- زكي مبارك المدائح النبوية في الأدب العربي، دط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، دت، ص77.
(19)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص84.
(20)- المصدر نفسه، ص346.
(21)- المصدر نفسه، ص.
(22)- الترمذي محمد بن عيسى بن مسورة، سنن الترمذي، ط2، دار الفكر، بيروت – لبنان،1983م، ج5، ص303.
(23)-أبو الفضل عياض بن موسى، شرح صحيح مسلم، ص412،411.
(24)- أبو محمد بن علي بن أحمد بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دط، دار الجيل، بيروت- لبنان، 1998م،ج4، ص94.

(25)- شاه عبد العزيز علام الدهلوي، مختصر التحفة الاثنا عشرية، ترجمة: محمد محيي الدين الأسلمي، تحقيق: محب الدين الخطيب،دط، المطبعة السلفية، القاهرة- مصر ،ص1373.

(26)-خم: واد بين مكة والمدينة المنورة ، به غدير خطب رسول الله عنده. ينظر: ياقوت الحموي الرومي، معجم البلدان، دط، دار صادر، بيروت- لبنان، 1957م،ج2، ص389.

(27)- الإمام الحافظ بن حجر العسقلاني، فتح الباري، دط، دار المعرفة، بيروت- لبنان،دت،ج8، ص67.

(28)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص307،308.

(29)- المصدر نفسه، ص300-302.

(30)-كربلاء: الموضع الذي قتل فيه الحسين عند الكوفة، ينظر: ياقوت الحموي الرومي، معجم البلدان، ج4، ص445.

(31)-دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص315-317.

(32)-الطَّف: أرض بالكوفة، كان فيها مقتل الحسين بكربلاء، ينظر: عبد الكريم الأشتر، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص531.

(33)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص334،333.

(34)- المصدر نفسه، ص329،328.

(35)- عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراح، ط2، دار المعارف، القاهرة- مصر، دت، ص267.

(36)-دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص78، 79.

(37)- المصدر نفسه، ص304،303.

(38)-المصدر نفسه، ص305.

(39)- المصدر نفسه، ص310-312.

(40)-المصدر نفسه، ص312-313.

(41)- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي، دب، دت، ج3،

ص237.

(42)- المرجع نفسه ص241.

(43)- ينظر: آدم ميتز، الحضارة العربية في القرن الرابع هجري، ترجمة: عبد الهادي أبو ريدة، دط، دن، دت،ج1، ص145.

(44)- المصدر نفسه ، ص145،146.

(45)- المصدر نفسه، ص115،116.

(46)- المصدر نفسه، ص251.